



إن السَّعادة لا تأتيك عُنوة ولا استِجداءً ..

إنما هي مَنبِعٌ تُرُّ بالعطاء، وأريجٌ فَوَّاحٌ يَنْثُرُ شَذَاهُ في الآفاق، وإشراقَةٌ توقِدُ فتيلَ الرُّوح وتَصْهَرُ أَشْوَاقَ الأحلام، وتُعِيدُ للذَّاكِرَةِ رَفيْفَ الخاطِرَةِ فتَتَفَتَّقُ كَقَطراتِ نَدِيَّةٍ من مُهْجَةِ الحِياة، ترطِّبُ ندوبَ الجِراح فتَلْتَمِمْ بلا مَشَقَّةٍ ولا عَناءٍ ..

إنَّه الإيمان حين تَنْتَشِيهِ قلوبُ الأصْفِياءِ فَيُزَيِّنُ جِيبَها بِغُرَّةِ النَّصرِ، ويُقَلِّدُ جِيدَها المَعالي فتَتَحَلَّى بالاعتِزازِ والفَخْرِ، وتَرْتَقِي به مَراتِبَ المَجْدِ التَّلِيدِ ومَهْدَ الأتْقِياءِ مَزِيَّةً وتَنالُ به سَجِيَّةَ أهلِ الكِرامَةِ والعِزمِ، من عاشوا في الدُّنيا بِزادٍ قليلٍ وهُم في سَعَةِ ورَحاءٍ، وماتوا وهم الأغْنِياءُ السُّعَداءُ، وما أَجْمَلُ ما قاله الإمامُ الشافعي في مدح هؤلاء مَمَّنْ زَهَدوا في الدُّنيا وصانوا دينَهُم من التَّخَبُّطِ في لُجَّةِ الفِتَنِ:

إِنَّ لِلَّهِ عِبَاداً قُطِنَا *** تَرَكُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتَنَا

نَظَرُوا فِيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا *** أَنَّهُ لَيْسَتْ لِحْيٍ وَطِنَا

جَعَلُوهَا لُجَّةً وَاتَّخَذُوا *** صَالِحَ الْأَعْمَالِ فِيهَا سَفِنَا

والسعادة.. لا تسكن قلوباً جوفاء:

قد تَعَلَّقَتْ بالأمالِ العَرِيضَةِ فتَخَلَّتْ عن مُقَوِّماتِ الإيمانِ والفضيلةِ، وساقَها الجُحودُ والطُّغيانُ إلى الانحِرافِ عن سُبُلِ الخَيْرِ والهِدَايةِ، وجَذَبَتْها أهْواءُ الشَّهْواتِ والمَلَذَّاتِ فَشَرَدَتْ في مَراتِعِ الكُفْرِ والضَّلالةِ، وخامَرها المَيْلُ إلى الدَّعَةِ والرَّاحَةِ فَأَفْسَدَ

سُلُوكَهَا، وَغَلَّ جَوَارِحَهَا بِأَغْلَالِ الْإِنْسِاقِ وَالْإِنْدِحَارِ فَشَلَّ تَفْكِيرَهَا عَنْ مَعْرِفَةِ الْحَقِّ، كَأَنَّ عَلَى أَبْصَارِهَا غِشَاوَةً كَتَلَتْهَا الَّتِي خَتَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)

(مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ)

قَدْ ابْتَلَاهَا اللَّهُ تَعَالَى بِالْحِرْمَانِ مِنْ نِعْمَةِ الْغِبْطَةِ وَكَرَامَةِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَرْسَلَ عَلَى قُلُوبِهَا سِجَافَ الْحُزَنِ الْكَثِيفِ، فَصَارَتْ أَشْبَهَ بِمُعْتَكِفٍ ضَجَّ مِنَ الْبُكَاءِ عَلَى الْأَطْلَالِ مَشْحُونَةً بِالضَّجْرِ، لَا تَمَلُّ مِنْ تَجَرُّعِ غُصَصِ الْمَرَارَةِ عَنْ كُتُبِ، وَضَاقَتْ عَلَيْهَا الدُّنْيَا فَلَمْ تَسْعَهَا بِرَحَابَتِهَا وَانْبِسَاطِهَا، كَمَا ضَاقَتْ أَرْوَاحُهَا بِأَنْفَاسِهَا الْعَلِيلَةِ فَلَفْظَتْهَا خَارِجَ شِرْبَانِهَا الْأَعْزَلِ كَدُخَانِ حَطَبٍ يَابِسٍ، وَصَدَّقَ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ حِينَ قَالَ فِي سُورَةِ طه: (فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا)

والسَّعادة.. في لَذَّةِ الْإِيمَانِ:

يَشْرِقُ نُورُهَا الْوَهَّاجُ فِي قُلُوبٍ تَعَلَّقَتْ بِاللَّهِ فَاطْمَأْنَنْتْ إِلَى رُكْنِهِ الَّذِي لَا يَنْهَدُ، وَسَكَنْتْ بِنِضَاتِهَا إِلَى وَسَادِ الرَّاحَةِ الرَّحِيبِ كَطِفْلِ مُتَعَبٍ تَوَسَّدَ رَاحَةَ الْمَهْدِ، تَرَفُّ بِشَكْوَاهَا فِيهِزُّهَا الْحَنِينُ إِلَى وُلُوجِ رَوْضِ السَّعْدِ، وَتَرْتَوِي مِنْ سِقَائِهِ الطَّيِّبِ الْعَذْبِ، وَتَسْتَظِلُّ بِظِلِّ نَحْلِهِ وَتَلْتَقِطُ مَا تُثْمِرُهُ الرُّطْبُ مِنَ الْعَذْقِ، وَتَتَنَشَّى مِنْ لَذَّةِ الْعِبَادَةِ وَالذِّكْرِ قُطَارَةَ الشَّهْدِ، فِي لِقَاءِ فَرِيدٍ لَهُ أَسْرَارٌ لَا يَسْبُرُ أَغْوَارَهَا إِلَّا الْعَارِفُونَ بِمَا تَحْتَوِيهِ خَزَائِنُ اللَّهِ مِنْ يَوَاقِيتِ الدُّرَرِ، وَلَا يَجْتَلِي أَنْوَارَهَا السَّاطِعَةُ إِلَّا ذَوَا الْبَصَائِرِ الصَّاحِبَةِ، وَالضَّمَائِرِ الْخَالِصَةِ، وَالْأَلْسُنِ الذَّاكِرَةِ، وَالْجَوَارِحِ الطَّاهِرَةِ، مِنْ رُزْقِهَا التَّنْعُمِ بِالطَّمَأْنِينَةِ وَجَمْعِهَا الشَّمْلَ بِأَسْبَابِ الْفَرْحِ الْوَارِفِ، لَمَّا تَطَهَّرُوا مِنَ الذُّنُوبِ وَتَحَلَّلُوا مِنَ الْمَعَاصِي، وَزَهَّدُوا فِي مَتَاعِ الدُّنْيَا وَرَغَبُوا عَنْ مِلَذَّاتِهَا بِالْكَفَافِ وَالرِّضَا بِالنَّصِيبِ الْمُقَدَّرِ، فَحِيزَتْ لَهُمُ الدُّنْيَا بِأَسْرَهَا، وَمَا أَجْمَلَ مَا قَالَهُ فِي هَذَا الْمَعْنَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرِّهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوَّةُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا)..

وَالسَّعادةُ تَسْكُنُ قُلُوبًا فَرَّتْ مِنْ لُجَّةِ الْأَدْنَسِ وَصَدَّتْ عَنْ شَقْوَةِ الْفِتَنِ، فَعَادَ إِلَيْهَا الصَّفْوُ يَصْدَحُ بِخَفَقَانِ الْحُبِّ، يَنْفَضُّ عَنْ رُفُوفِ ذِكْرِيَّاتِهَا دُخَانَ الْوَجَعِ، وَيَخْمَدُ فِي صَدْرِهَا الْمُتَنَاعِ الْكَمَدَ وَالْقَهْرَ، فِيهِتَفُ رُكْنُهَا الْخَامِلِ يَسْتَجِدِّي وَصَلًا بِالْمَعَانِي الَّتِي تَحْرِكُ رَفِيفَ الرُّوحِ، وَتَبْعُثُ فِي خَلْجَاتِهَا أَكْرَمَ ذِكْرَى وَأَشْرَفَ عَهْدٍ، وَأَنْبَلَ مَأْرَبٍ، وَأَسْمَى قَصْدٍ، فَيَلْتَجِفُ صَوْنُهَا الشَّاكِي قَلِيلًا مِنَ الصَّمْتِ وَالسُّكُونِ، لِتَرْسِلَ الْمَسْرَاتُ بِسَمَاوَاتِهَا مَجْلَجَةً فِي الزَّمَنِ الرَّغْدِ..

والسَّعادة.. في الْجِدِّ وَالنَّشَاطِ:

تَتَمَتَّلُهَا الْحَوَاسِ فِي هَذَا الْوُجُودِ الْفَسِيحِ فَتَقْبَلُ عَلَى الدُّنْيَا إِقْبَالَ الْمُجِدِّينِ، لَا يَصْرِفُهَا اللَّهُ وَلَا اللَّغْوُ، وَلَا فُضُولُ الْكَلَامِ عَنِ الْإِنْتِاجِ وَالتَّحْصِيلِ، تَصُونُ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ عَمَّا يُزْرِيهَا وَيَشِينُهَا، وَتَنَاقُ بِنَفْسِهَا عَنْ مَجَالِسَةٍ مِنْ اتَّقَدَّتْ قُلُوبُهُمْ بِالْذُّخَنِ وَالْذَّغْلِ، وَتَصُدُّ عَمَّنْ خَالَطَ عُقُولَهُمْ السَّفَهَ وَالْذَّجَلَ، وَتَحْفَظُ كَرَامَةَ أَهْلِ الْمَجْدِ وَالشَّرَفِ، وَتَصُونُ هَيْبَةَ أَهْلِ الْوَقَارِ وَسُلْطَانَ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَتَحُثُّ الْخَطِيئَةَ سَاعِيَةً فِي الْأَرْضِ بِكَدٍ وَنَشَاطٍ عَلَى شِرْعَةِ أَهْلِ الرَّشَادِ وَالصَّلَاحِ، خَالِيَةً الذِّهْنَ مِنْ كُلِّ وَجَلٍ أَوْ عَطَلٍ، تَحْصُدُ سَنَايِلَ الزَّرْعِ، وَتَلْتَقِطُ الْحَبَّ وَالثَّمَرَ، وَتَصْنَعُ بِيَدِهَا الرَّغِيفَ وَالْخُبْزَ، قَانِعَةً بِلَقَائِمَاتٍ تُقِيمُ صُلْبَهَا، وَتَشُدُّ عَوْدَهَا، وَتَقْوِي سَاعِدَهَا، وَلَا يَهْنَأُ لَهَا عِيشٌ حَتَّى يَرْبُو النَّبَاتُ وَيَخْضُرَ، وَتَتَسَّعَ الرِّبَاضُ وَتُزْهَرَ، وَتَمْتَلِئَ السَّوَاقِي، وَالْجَدَاوِلُ، وَتَفِيضَ الْأَنْهَارُ بِالْمَاءِ الْعَذْبِ، لَا يَشْغُلُهَا عَنْ بُلُوغِ غَايَاتِهَا النَّبِيلَةِ طَمَعٌ زَائِلٌ وَلَا تَرَفٌ زَائِدٌ، وَلَا يَصْرِفُهَا عَنْهَا التَّعَبُ فِيمَا لَا يُغْنِي وَإِنْ كَثُرَ، وَلَا يُحْزِنُهَا النَّاسُفُ عَلَى قُوَّةٍ مَا لَمْ يَقْدَرْ، وَتَتَوَقَّعُ هِمَّتُهَا إِلَى مَا يَقْرِبُهَا مِنَ اللَّهِ وَيُغْنِيهَا عَمَّا سِوَاهُ، فَتَأْتِيهَا الدُّنْيَا رَاغِمَةً مُسْتَبْشِرَةً،

مصادقا لإرشاد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ كَانَتْ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاعِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ)..

فما أسعد تلك القلوب التي وجدت ظلّها الوارف ورُكْنَهَا الآمن، يذكرّها بما هو أعظم من كلّ شيء، ويلهمّها الخُشوع وتدبُّر آيِ الله في ذاك الوجود الرَّحْب، يحجُبُ عن عَيْنِهَا النَّظَرَ إلى الحياة ويكشف لها النَّظَرَ لِلآخِرَةِ، فتلتذُّ بنشوة الغبطة..

المسلم

المصادر: